

انحطاطنا من نهضتنا

لا شك في ان ازهى وأزهر وأعظم عصر في التاريخ المغربي الحديث هو عصر المنصور الذهبي ، وقد ساعدته ظروف تقلده الحكم أكثر من كل شيء .

ببيع صبيحة اعظم انتصار في احدى كبار وقائع حروب الدول المغربية : وقعة « وادي المخازن » أو « معركة الملوك الثلاث » ، كما يسميها الافرنج ، التي قتل فيها سبستيان ملك البرتغال وأغرق فيها ابو عبد الله محمد السلطان المخروع ومات اثنائها عبد الملك السعدي وقال فيها المؤرخ ابن القاضي في كتاب « المنتقى » : انها اشبه شيء « بغزوة بدر . » وبلغ عدد القتلى الى حد جعل صاحب « الزهة » يقول : ان النصارى لما وقعت عليهم الكائنة المذكورة وفي من في منهم ورأى اساقفتهم قلة عددهم وخلاء بلادهم لكثرة من مات منهم اباحوا للعامة فاحشة الزنا ليكثر التناسل ويخلف ما هلك منهم .

لا أريد ان اتكلم هنا عن حياة المنصور وعصره ولا على نتائج وقعة « وادي المخازن » السياسية في داخل البلاد وخارجها ، وانا جد عايم بان هذه المفخرة لا تزال في احتياج كبير الى البحث والتقيب والى اذاعتها كمفخرة وطنية .

ومن المعلوم ان افتداء اسارى تلك الوقعة اغدق على المغرب والمغاربة من الذهب والنفائس ما أغناه وأغنهم فوق الحاجة حتى صار المغرب بمنزلة « مصرف العالم »

فحاولت امم اوروبية كثيرة الاستقراض من خزائنه وصار ملكه يلقب « بالذهبي » (١) لكثرة ما لديه من هذا المعدن النفيس .

اما ما جاء للمنصور الذهبي من الهدايا والتحف عقب انتصاره وبيعته فترك الكلام عليه الى الفشتالي صاحب مناهل الصفا : « فوردت عليه الارسال من سائر الاقطار مهئين له بما فتح الله على يديه ، وكان أول من وفد عليه رسول صاحب الجزائر ثم تلتها ارسال طاغية البرتغال وهو الريكي القائم بامرهم بعد هلاك سبستيان ... فقدموا بهدية عظيمة وضعوها يوم دخولهم الى فاس على الكراريص (العربات) والعجل فعجب الناس منها عجباً بليغاً وكان ذلك اليوم يوماً مشهوداً وكان من جملة ما فيها ثلاثمائة الف دكات من ريال الفضة واما الطرف النفيسة والاثاث الرفيع فشيء لا يحصى ثم وردت ارسال طاغية الاصينيول صاحب قشتالة بهدية عظيمة منها اليواقيت الكبار التي انتزعها الطاغية من تاج آباءه وصندوق مملوء من الدر الفاخر وقضب الزمرد وغير ذلك وتكلم الناس فيما بين الهديتين أعني هدية البرتغالي وهدية الاصينيولي ايها اعظم ولم يهتد اهل العقل والمعرفة الى مقدار التفاوت بينهما ثم قدمت ارسال السلطان مراد العثماني ومعه هدية وهي سيف محلي لم ير مثله مضاء وصفاء متن ثم قدمت ارسال طاغية افرنسة ومعه هدية عظيمة ولم تزل الوفود مترادفة بباب المنصور والارسال تصبح وتمسي على اعتاب

(١) يزعم البعض ان لقب « الذهبي » لم يطلق على احمد المنصور الا بعد فتح السودان وقد ثبت انه لقب كذلك على اثر دخول ذهب افتداء اسارى وقعة « وادي المخازن » الى المغرب قبل فتح السودان بسنوات .

تلك القصور الى ان لم يبق احد ممن تتسوف النفوس اليه. ثم جاء « فتح السودان » فزاد المغرب غنى على غناه واستجلب من معادنه وآجابه من الذهب والعاج ما جعل المنصور ، كما قال اليفراني صاحب نزهة الحادي : « لا يعطي الرواتب الا النضار الصافي ، والدينار الوافي. »

وياليت لم يستورد سوى الذهب والعاج ، ولكنه ، وبالإللاسف ! استجلب جيشاً من السود فيهم الذكر والانثى كباراً وصغاراً ، حتى لم تبق في المغرب عائلة من كبار عائلاته التي كانت على رأس البلاد وليس فيها سوداني وسودانية على الاقل ففشى التسري مع السودانيات اللاتي عوملن معاملة الاماء رغم اسلامهن واخذ السوداني الاسود يتصاهر مع المغربي الابيض ويعقد للمغربي الابيض على السودانيات اللواتي ادخلن السحر بانواعه وخرافاته الى قلوب العائلات المغربية النبيلة...

فما كانت النتيجة ياترى من استجلاب الذهب والعاج وابناء السودان السود الى بلادنا واختلاطهم باهلها ؛ لو انتبه سلفنا الى ما جنوا على انفسهم وعلى خلفهم مما ظهر آثاره بعد جيل أو جيلين من عصرهم لكانوا أول النادمين فان المغاربة لما استغنوا اذ ذاك عدلوا عن العمل والسعي وراء الاسباب فطغت الآجام والاعشاب على الارض الخصبية وتركت الاشجار للدود واخذت العناصر الجوية تلعب طليقة في القصور الجميلة والدور العالية وجعلت منها خرائب دارسة بعد ما كانت منازل عامرة وهاجر الناس الجيش ولم يبق فيه سوى الاجانب الماجورين وابناء السودان الذين جعل منهم « الحرس الاسود » فاصبحت الثغور شاغرة بلا حارس فريسة سهلة امام كل عدو وعرضة لكل طامع نهم ولكل هاجم ضار .

واستحوذ اللهو والفجور ، ابنا الغنى ووالدا الفنا ، على كل فكر ولب ، فجاء الخراب بسرعة لا يعرفها البرق ، وجاء ليل اطول من النهار الراحل ، وجاءت ظامة اسود من ظامة القبر ، ثم جاء اخيراً الجهل فوجد ارضاً واسعة ضرب فيها خيامه واحكم او تادها في افكار آبائنا اولا وفي عقول ابنائهم فيما بعد ، وها نحن الآن نعاني اشد العذاب في اقتلاعها وهي لم تتزعزع ولم تتحرك قيد انملة والله وحده أعلم بعدد الاجيال التي سينقلص ظلها قبل ظله . وقد حصلت مثل هذه الظاهرة لاسبانيا عقب فتحها لامريكا ، بعد ما اكتشفها كلبوس واستجلبت الذهب والغنى منها وسكانها لا يزالون يتضورون ويتخبطون للخروج من نتائج ذلك .

ثم ظهرت بعد جيل أو جيلين عواقب التسري بالسودانيات والتزوج من السودانيين وامتزاج الدم الابيض السامي الخالص الحار بالدم الاسود القح البارد واختلاط طبائع العمل والعبقرية بطبائع الكسل والفتور واسترضاع السودانيات لنا حليهن الذي سزى فينا فبرّد ما في عروقنا من تلك الدماء التي جرى مثلها في عروق قادة وملوك وعلماء متفئذين من العرب والبربر من احفاد سام .

هذه هي الاسباب التي جعلت من اجيال عديده بالمغرب اجيال هجينة فاسدة الاخلاق ، وحتى الخلق غالباً ، فاقدة المواهب الطبيعية التي جعلت من ابائنا واجدادها قادة وسادة العالم ، فشباننا شيوخ وشيوخنا موتى ، هذه هي الاسباب التي جعلت على قلوبنا وافكارنا وعيوننا وبصائرنا وآذاننا غشاوة تحتاج لكشطها الى اجيال وهي لا بد مع ذلك تاركة في خلفنا أثرها السيئ . هذه هي الاسباب التي جعلت منا قوماً كسالى وملا

كان اباؤنا بكسالى والتي جعلت الاجانب يظنون ان كل ما جاء به جدودنا ليس لهم بل من اعمال دخلاء اعتنقوا الاسلام ديناً واتخذوا العربية لساناً لهم أو كانوا مأجورين من ملوكنا .

والمحزن ، بعد هذا كله ، هو ان جل اعضاء طبقتنا البارزة — لا الراقية — باموالها ونسبها لا تزال غارقة في هذا اليم تأخذ لنفسها وتعطي لأولادها سراري اسود مسلمات قبل زواجهم خوفاً من ... الزناء ويسترضعون اولادهم سودانيات أو يتخذونهن لهم مربيات او يعقدون عليهن لانفسهم .

هذا سبب ، أو أعظم اسباب انحطاطنا نشأ عن أزهر عصر تاريخنا تحت ملك أكبر سلطان دولة السعديين التي سمي عصرها ، بحق ، « بنهضة الاسلام » تحت حكم من يسميه المؤرخون : « بخليفة العلماء ، وعالم الخلفاء » ولو علم بما سينتج عن فعله اذ ذاك لاحتاط ولو ادى به الامر الى العدول عن فتح السودان .

ونحن نشاهد الآن آثار ونتائج التحام الانساب بعضها بعضاً في عجز امم جنوب امريكا السياسي والفكري وهذه الدول ليست الا مزيجاً من الهنود الحمر سكان امريكا الاصليين والمعمرين الاسبان والبرتقال وهو أقرب الينا يعاني الآن ويصارع عواقب الانحطاط التي فقت جراثيمه ايضاً في ابدان نهضته العظيمة ايام كانت الشمس لا تغرب عن مستعمراته حيث اختلط وتزوج المهاجرون من البرتقال بالاهليات السودانيات او من الوان غير لونهم او دم غير دمهم .

ومن العجب ان وقع مثل هذا في المغرب بعد ابن خلدون بقليل وكان قد خصص فصولا ضافية في مقدمته تكلم فيها عما يعتري الانساب في اختلاطها من سوء ومفاسد بصفة واضحة ومثل لذلك بامثلة عديدة من تاريخ الاسلام وغيره وأيد رأيه باحاديث شريفة وأقوال للصحابه والخلفاء ماثورة ومعلومة لدى كل اديب وفقه اذ ذاك وحتى اليوم .

اننا بشيء من العناية والاجتهاد نجد ونشاهد في علا كل شيء ونهضته أصل جرائم انحطاطه ، ان العقول لا تشك حينئذ ولا تتم شيئاً بسوء لأنها تكون لاهية أو نائمة في امن واطمئنان تامين ، بعيدة كل البعد عن التفكير في أن سنة النشوء والتحول الخالدة لن تتغير ولا تزال تعمل عملها بعد الموت ، تحسب ان ليس للاجيال والقرون نهاية مع أن ما بقي امامها من الحياة ايام معدودة ولها العذر : فالهواء دافئ عليل معطر ، والسماء مصحبة قد انقشع عنها ضباب الصباح ، وعربة الشمس تطلع بهدوء شيئاً فشيئاً الى قمة دورتها ومجالاتها الذهبية تنير القبة الزرقاء ، ولكن حادي الجياد الرفيعة قد بدّل فصار « فيطون » ابن الشمس الطائش بشبابه بدل « فوبيس » كما قال الكونت دوغو بينو في احد كتبه الخالدة .

ولا اريد سوءاً أو مكروهاً باخواننا السود فان لهم ميزات وخصالاً ليست لنا وهم مسلمون مثلنا ، ولا فضل لمسلم على آخر الا بالتقوى ، وانما اردت لفت الانظار الى ما في امتزاج دمين مختلفين ، تبرز بامتزاجها الطبائع

التجارة والتجار

وفاء بالوعد - نشتر بحول الله تباعاً تحت هذا العنوان سلسلة المقالات التي التحفنا بها صديقنا الالمعي سيدي محمد المنجرة حسبما سبقت الإشارة منا الى ذلك شاكرين :

ان التجارة من أهم وسائل الحياة وبها قوام المعيشة التي هي الغاية المقصودة وقد عمت ببلاذنا وكثرت بكثرة متعاطيها ووفد علينا من كل الامم والشعوب على اختلاف اجناسهم واتساع معارفهم مع ما هم عليه من الرقي والخبرة بالتجارة وطرقها وتقويم خلق التاجر واستعداداته للجد والاجتهاد المطلوب منه حتما عدد وافر انتشر في ارجاء القطر وأصبحنا بحاجة عظيمة الى بيان طريقته وكشف النقاب عن حقيقتها ولا بد في ذلك من كتابة توضح كيفية الخوض فيها والاسباب الموصلة اليها بأحسن وجه وأكمل اسلوب لتكون نافعة ومفيدة للناشئة المحاولين الانخراط في سلوكها وتفهم معناها وما يجب عليهم في ذلك من علم وعمل وخلق واقتدار وقد أهمل علماءنا وكتاب عصرنا هذا الفن الجليل ولم يهتموا به ولا التفتوا اليه ناسيين أو متناسيين انه قوام الحياة واننا معشر المغاربة مفتقرون الى معرفة طرقه القويمة أكثر من غيرنا . وحيث كنت ممن طمحت أنفسهم لرقى التجارة رقياً مناسباً للنهضة الوقتية والاطلاع على مبادئها الحديثة لكوني ممن زاول مهنتها منذ الصغر أو مع الاسف بلا علم ولا تعام ، بل بتدريج عادي من متعام الى مبتدي ، الى متوسط في التقسيط الى تاجر متوسط ، وأسعدني الحظ بمخالطة أهل العلم والمعرفة بالتجارة وطرقها ووسائلها وأخلاق محترفيها وسلكت

والاخلاق من الضرر علينا وعلى بلادينا ، وها نحن نكابد عواقب ذلك وضرره فعلا بعد ذهاب الغنى وبقاء نسل واجيال هجان منحلة . محمد حصار

- أفكار (هتيرية) او (كالية) وعقول الشباب جوّالة ، والكاتب من خيرة الشباب وأكثرهم اطلاعاً وفهماً ، وقد نشرنا مقاله من غير ان نمسه... بخير خدمة لحرية الفكر وتشجيعاً على الصدع بما في الضمير ، والا فلنسنا على رأيه في شيء ، والموضوع هام ، وقد كتب المسامون فيه قدماً واستعملوا الفاظاً وعبارات غير عبارات الوقت ليس هنا محل ايرادها ، والاسلام دين وحدة لادين قومية ووحى سماوي لا اجناس دم او وراثة .

هذا وانا لشكر الكاتب البارع رغماً عن (اختلاط) الميتولوجيا اليونانية في كتابته باللهجة العربية (على طريقة المجددين المصريين...) ذلك الاختلاط الذي ينقم على مثله في الدم شكراً جزيلاً ونطلب منه ان يكتب وان يكتب كثيراً ولو في الشاذ من الاراء فان الافكار تولد الافكار والحركة كيفما كانت بركة . (٢)

البقاء لله

في هذه الايام الاواخر فوجئنا بموت الفقيه المتضلع السيد الحاج العباس الكردودي احد رجال الخدمات والاعمال الجليلة بدار الخزن العامة ، فكان المصاب به عظيماً والاحتفال بمآتمه رهيباً محزوناً ومشى في تشييع جنازته عدد عديد من رجال الخزن واعيان الرباط وغيرهم من محبيه الكثيرين .

ونحن بعد ابداء تأثرنا لموت هذا الفقيد الكريم وثنائنا على نزاهته ووداعته نرفع تعازينا فيه لعائلته المفجوعة به رزقها الله جميل الصبر والسلوان واغدق عليه سجال الرحمت والغفران .

- كما فوجئنا ايضاً بموت العالم الفضال السيد عبد الرزاق غطاس احد الموظفين الكبار بادارات الحماية والرجل من خيرة 'لتونسيين' الابرار وله في المغرب الاقصى خدمات واعمال كلها نزاهة واخلاص فتعزي فيه عائلته واقاربه واخوانه الكثيرين ونسأل الله تعالى ان يتمتع برضائه ورحمته .